نكبة ابن رشد
تعدد في الأسباب وتبذل في المواقف

الدكتور حبيب عزالدين
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة قاريونس

نكبة ابن رشد*

تعدد في الأسباب وتبذل في المواقف

أرى من الأفضل التقديم لنكبة الطبيب الفيلسوف على يد الأمير ألموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما كان لها من آثار بعيدة على تراثه الفكري , وتأثيره في الثقافة الإسلامية بمطالعة متأنية لبداية اتصاله بالبلاط , والمكانة التي تبوأها في كنف الموحدين , وتقريبهم إياه إلى حد التجاوز لمراتب بعض رجالات دولتهم , وما خلفه ذلك من جوانب سلبية في نفوس خصومه فأضمروا له شرا مستطيرا , ولفقوا له من التهم الدينية والسياسية والاجتماعية ما ألحق به نكبة ماحقة في أخريات حياته ألقت ظلا كثيفا على سيرته وصورته للناس أنه مارق عن الدين رغم كل ما بذله من جهد وسلكه من منهج "في الاستدلال على صحة العقيدة الإسلامية أفضل مما سلكه غيره , واستطاع بمنهجه ذلك أن يجمع بين العقل والنقل على افضل وجه عرفه الناس". ①

بداية اتصال ابن رشد بالموحدين :

يذهب الكثير ممن أرخوا لابن رشد إلى أن أول اتصال له بالموحدين كان ذلك اللقاء الذي جمعه بالأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (المتنور)② بحضور الطبيب أبو بكر بن طفيل ③ وتقديمه إياه . إلا أن ذلك الاتصال في حقيقة الأمر" لم يكن بأبي يعقوب وإنما بمؤسس الدولة عبد المؤمن بن علي نفسه , ففي سنة 548هـ/ 1153 م سافر ابن رشد إلى حاضرة مراكش بدعوة من عبد المؤمن ليستشيره في إقامة المدارس التي أراد إنشاءها بمراكش" ④ وكان عمره سبعا وعشرين سنة ⑤ وان عبد المؤمن رأى أن يستعين

---

* هو الطبيب الفيلسوف محمد بن احمد بن محمد بن رشد , لقب بالحافظ ,وعرف بالحفيد. ولد في قرطبة 520 هـ وتوفى بمراكش 595هـ .صنف نحو خمسين كتابا في الفقه الإسلامي والطب والفلسفة منها : الكليات في الطب , تهافت التهافت وهو رد على كتاب تهافت الفلسفة للغزالي ,فصل المقال وتقرير مابين الحكمة والشريعة من الاتصال ,الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة, بداية المجتهد ونهاية المقتصد, علاوة على تلاخيص لكتب أرسطو وشروح أرسطو.

بمعارفه في علم الفلك عندما اعتزم إنشاء مجموعة من المراصد الفلكية"ولا مبرر للشك في هذه الرواية مادام ابن رشد نفسه يؤكد على وجوده في مراكش في السنة نفسها, اعني سنه 548هـ حيث قام بمراقبة فلكية من جبل درن①". وفي هذه المناسبة كان اللقاء الأول لابن رشد مع أبي يعقوب الذي شغف بجمع العلماء من كل الأنحاء , وكذلك كتب الفلسفة ," وهو ما يتفق مع الرواية التي تذهب إلى أن لقاءهما كان سابقا لتقديم ابن طفيل إياه②وان كان لا يبدو أن اللقاء الأول الذي تم بينهما لم يتسع إلى الحد الذي يعرف معه أبو يعقوب المكانة الحقيقية لابن رشد في العلم والفلسفة خاصة , مما حمل ابن طفيل على التعريف بتلك المكانة والى التبسط في الحديث الذي شمل أسرة ابن رشد.أما ما وقع في اللقاء الثاني فلم يكن عابرا عبور المهمة التي تنقل من أجلها في عهد عبد المؤمن ,ليعود بعد ذلك على عجل الى الأندلس , وإنما هو لقاء كان مقصودا , فلم يقتصر التعارف فيه على الذوات إن صح التعبير , بل شمل الأرواح والعقول , وعن ذلك اللقاء ينقل صاحب كتاب المعجب في تلخيص أنباء المغرب عن تلميذ لابن رشد (الفقيه الأستاذ أبو بكر بندود بن يحي القرطبي) ما نصه :

"سمعت الحكيم أبا الوليد [ابن رشد] يقول غير ما مرة :لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل , ليس معهما غيرهما , فأخذ أبو بكر يثني علي , ويذكر بيتي وسلفي , ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين , بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي , أن قال لي : ما رأيهم في السماء , يعني الفلاسفة , أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف , فأخذت أتعلل و أنكر اشتغالي بعلم الفلسفة , و لم اكن ادري ما قرر معه ابن طفيل , ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء , فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله

انظر ترجمته في الوافي بالوفيات حـ1,الديباج المذهب , التكملة لابن الآبارحـ1,دائرة المعارف الإسلامية حـ1, شذرات الذهب حـ4, عيون الأنباء في طبقات الأطباء حـ1,الأعلام للزركلي.

①حمادي العبيدي : ابن رشد الحفيد , حياته علمه فقهه, الدار العربية للكتاب , ليبيا 1984, ص 29

②محمد عابد الجابري:ابن رشد سيرة وفكر (دراسة ونصوص)مركز دراسات الوحدة العربية,ط1(بيروت 1998)ص45

③هو أحد أعلام الطب والفلسفة في الأندلس , اتصف بعمق الأيمان من غير تزمت أو ركون إلى الزهد , متفتح ناضج التفكير والعاطفة , محترم لأراء الآخرين ومعتقداتهم , جمع بين علوم الطب والفلسفة والفلك , كتب أطول أرجوزة عبر تاريخ الأدب العربي في مجال الطب العلاجي .

انظر ترجمة في : عبد الرحمن بدوي :حي بن يقظان لابن طفيل ,محمود الحاج قاسم : قراءة في أرجوزة ابن طفيل في الطب , نيقولا زيادة : الفكر العربي الإسلامي إعلام ومؤلفات , انخل بلنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ,ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء والحكماء , ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطه .

④ حمادي العبيدي : المرجع السابق ص 22

⑤ العباسي بن إبراهيم : الأعلام بمن حل بمراكش واغمات من الأعلام , تحقيق عبد الوهاب بن منصور , جـ 4 , المطبعة الملكية (الرباط 1976)ص 131.

① الجابري : المرجع السابق ص 42 .

② احمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي , ط 23 , مكتبة نهضة مصر (القاهرة د.ت) ص391.

③عبد الواحد المراكشي , المعجب في تلخيص أخبار المغرب , مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم 18300, ورقة 114.

أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة , ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم , فرأيت منه غزارة وحفظ لم اظنها في احد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له , و لم يزل يبسطني حتى تكلمت , فعرف ما عندي من ذلك , فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنيه ومركب " ③وإذا كان الكثيرون قد اجتهدوا في محاولة تحديد تاريخ الاستقبال الذي خص به أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن رشد استنادا إلى آراء بعض المستشرقين , فأبانوا أن ذلك قد حدث إما بعد سنة 558 هـ وهى ذات السنة التي تولى فيها الخلافة عقب وفاة والده , أو في سنة 564 وهى السنة التي رسم فيها كقاضي لمدينة اشبيلية فان هناك من المعطيات ما تقطع بخطأ هذه التواريخ .

أ- إن ما ذكره ابن رشد حول اللقاء الأول بالرجل "يفيد بوضوح أن الأمير ألموحدي لم يكن يعرفه من قبل وإلا لما سأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه , وهذا يدل على أن هذا اللقاء قدتم في وقت مبكر , أي في السنة الأولى أو الثانية من ولايته على اشبيلية فان ابن طفيل كان قد التحق بهذا الأمير" ①

ب- إن المؤسس الفعلي (عبد المؤمن)" كان قد استدعى ابن رشد إلى مراكش عام 548 هـ ليكون عضوا في اللجنة التي كلفها بوضع نظام للتعليم في الدولة الفتية " ②

نعم ابن رشد في عهده بمكانة مهيبة , وتنقل في أرجاء دولته مكلفا بسفارات ومهمات قبل أن يقفل راجعا إلى قرطبة , والتفرغ لشرح كتب أرسطو التي كانت نفس الأمير ألموحدي أبى يعقوب تواقة إليها , وتتملكه رغبة شديدة في الظفر بمن يشرح له أرسطو شرحا وافيا ظافرا . ولما كان ابن طفيل يعلم كفاءة ابن رشد وقدرته على تلبيه طموح الأمير والنهوض بها , فانه انتخبه لذلك حين قال له "لقد سمعت أمير المؤمنين يشتكي من غلق عبارة أرسطو طاليس وعبارة المترجمين عنه , ويذكر غموض أغراضه ويقول :لو وقع لهذا الكتاب من يلخصها , ويقرب أغراضها , بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس ...فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل , واني لارجو أن تبر به لما اعلمه من جودة ذهنك , وصفاء قريحتك , وقوة نزوعك إلى الصناعة " ③

قام ابن رشد بما طلبه الأمير أفضل قيام في سنتين , فولاه قضاء قرطبة , ثم ما لبت أن دعاه إلى حاضرة الخلافة (مراكش) سنة 578 / 1182 ليرسمه طبيبا للبلاط خلفا عن ابن طفيل , ويقال أن ابن طفيل نفسه "هو الذي أشار على أبى يعقوب يوسف أن يعين ابن رشد خلفا له في منصب طبيب البلاط ④" إلا أن ابن رشد لم يستمر طويلا في ذلك حيث فضل العودة إلى قرطبة عما حباه به الأمير من انتخابه طبيبا خاصا حيث عز عليه تركه لمنصب القضاء الذي الفته أسرته سنين طويلة , وعز عليه أن يظل بعيدا عن مكتبته

---

①الجابري :المرجع السابق ص 47
②الجابري : نفسه
③ عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ص 115
④كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية , ج 2 , ترجمة أمين فارس ,ط 3, دار العلم للملايين (بيروت 1961) ص 328
⑤الجابري : المرجع السابق ص 37

ومصادره , فلقد شغف بالعلم من صغره إلى كبره , حتى حكي عنه "انه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل , إلا ليله وفاة أبيه وليله بناءه على أهله " ⑤

علاقة ابن رشد بالخليفة والفقهاء

ارتقى سدة الخلافة أبو يوسف عقب وفاة والده في 580 هـ ,فنال ابن رشد عنده من المكانة و الاعتبار ما لم ينله عند أبيه , حيث كان ينعم بمجالسته والتحاور معه في القضايا الفلسفية وانه كان يجلس إلى جانبه على وسادة لا يجلس عليها إلا من كانت له حظوة البلاط , فصار ابن رشد سلطان الأفكار والعقول , لا رأى إلا رأية , ولاقول إلا قوله , فأثار ذلك حنق الفقهاء والرواة الذين كانوا تواقين للإطاحة بطبقة العلماء والفلاسفة , خاصة وان ابن رشد اتصف بعدم النفاق والممالأة , علاوة على عدم شعوره نحو الفقهاء بكثير من المودة , وامتعاضه من سوء مسلكهم رغم انه كان أساسا من طبقتهم (الفقهاء). ولقد أفاضت كتب التراجم في بيان تعمق الطبيب الفيلسوف ابن رشد في دراسة الفقه "فهو قد وضع كتابا قيما فيه هو (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)...بل إن من المؤرخين من يذهب إلى شهرة ابن رشد إنما ترجع أساسا إلى تفوقه في دراسة الفقه" ①. ومن هنا كان لابد للفقهاء من تدبير ما يمكن به الحد من تلك المكانة التي احتلها ابن رشد في نفس الخليفة , بل الإطاحة به , وإزاء ذلك هبت عاصفة عاتية في وجه ابن رشد قادها أولئك , تعددت فيها أسلحتهم (العلم والدين والسياسة) قدر لهم بها أن يسير الخليفة في ركابهم _ أو هكذا تصوروا _ فكانت النكبة ..

استغل خصوم ابن رشد فرصة غياب الخليفة عن قرطبة لانشغاله في حربه ضد الملك البرتغالي الفونس الثاني فعقدوا اجتماعا لتدارس جملة من التهم في حق ابن رشد رأوا فيها ما يكفل أزاحته عن تلك المكانة التي تبوأها في البلاط ألموحدي, وتقريب الخليفة له "حتى تعدى به الموضع الذي كان يجلس فيه أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبوحفص الهنتاتي صاحب عبد المؤمن وهو أحد أفراد أسرة بربريه تدعى بالحفصيين , عميدها أبو حفص الهنتاتي من أول أنصار ابن تومرث واصبح فيما بعد احد القادة الكبار في جيش عبد المؤمن بن على ألموحدي②"...وما أن قفل الخليفة إلى البلاد حتى تقدم إليه أولئك ببعض الكتابات التي تتضمن طعنا في عقيدة ابن رشد وسخريته من الخليفة , منها ما كان بخطه , وقد الحوا عليه في قتله , وتخليص العباد والبلاد منه .إلا إن الخليفة اظهر ترددا في قبول تلك التهم والمزاعم, ونازعته نفسه في رفضها , وبالتالي أبى الاستجابة لمطالبتهم إياه بقتله , حيث اكتفى بعقد مجلس بجامع قرطبة لمحاكمته"مؤثرا الإبقاء على حياة ابن رشد , واغمد السيف التماسا للعزاء , وأمر طلبة مجلسة وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين وتعريف الملأ بأنه مرق عن الدين " ③

① عاطف العراقي : تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية , ط 6 دار المعارف (القاهرة 1993) ص204
② حمادي العبيدي : المرجع السابق ص 30

محاكمة ابن رشد (بداية النكبة)

عقدت المحكمة في جامع قرطبة (591هـ/1195م) وحضرها جمهور غفير من الفقهاء والعلماء وطلابهم , اغلبهم كان يظهر لابن رشد شرا مستطيرا , وتولى الدفاع عنه فيها القاضي أبو عبد الله بن مروان الذي أحسن الدفاع , الأأن قراءة كتبه الفلسفية في مجلس المحاكمة , وتعمد قارؤها تحريف معانيها حتى تساير ما يريدون توقيعه عليه من تهم ملفقه , بل إن خصوم الرجل لم يكتفوا بذلك "بل ذيلوها بكتابات ماكرة أرادوا منها أن يثبتوا أن ابن رشد خطر على الدين وانه يروم تهديمه" ① وساقوا من الادعاء ما يكفل الحكم عليه بالإدانة من قبل قضاه هم الشهود والخصوم في آن "خصوم ألداء , مصدر خصومتهم الحسد , وقساة يطالبون بالقتل وحرق الكتب من اجل المخالفة في الرأي أو المنهج , وشهود زور لأنهم شوهوا آراءه وحرفوها إلى الصورة التي تتفق مع ما يبتغون رغما عن أنها لا تدينه②" .

لقد أنكر ابن رشد على مسمع من الخليفة كل ما حاولوا إلحاقه به من تهم باطلة , ودافع عن سلامة عقيدته , وان كل ما قرأ على مسمعه مزور عليه , وان الكتابة ليست بخطه , داحظا بالحجة كل فرية . ورغم ذلك فان الحكم قد صدر في غير صالحة , وقضى بإخراجه من قرطبة في حال يرثى له "وأمر بإبعاده وإبعاد كل من يتكلم في شيئ من العلوم التي تتعلق بالفلسفة وقد أمر الخليفة بأن تكتب عنه الكتب إلى البلاط طالبة من الناس ترك هذه العلوم جملة واحدة , وبإحراق كتب الفلسفة كلها ماعدا الطب والحساب وعلوم الفلك التي تؤدي إلى معرفة أوقات الليل والنهار واتجاه القبلة في الصلاة , فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها " ③ وكان أول الإجراءات إخراج فيلسوف وطبيب وقاضى قرطبة منفيا إلى قرية تبعد نحو من ثلاثين ميلا من قرطبة تدعى الليسانة سكانها يهود "وكان دافع نفيه إلى هذه القرية ما أشاعه عنه خصومه من انه يهودي الأصل④" وإذ ذاك ضج الناس في قرطبة واشبيلية وسائر البلاد للحادث "فأصدر المنصور كتابا بمنزلة التبرير لما صنع , ومثل هذا يبرر عادة بالدفاع عن الدين , كما تضمن الكتاب تحذيرا من تآليف ابن رشد وجماعته , ومن كتب الفلسفة .أرسل إلى أنحاء البلاد , وقرئ بالمساجد , وكان الذي كتبه هو عبد الله بن عياش كاتب الأمير نفسه" ⑤

وعندما قرر المنصور محاكمة ابن رشد بتحريض من حاسدية ولأسباب سنتعرض اليها في مكان أخر من المقالة فانه لم يجد ذريعة لإخفاء السبب الحقيقي في محاكمته غير دعوى "الاشتغال بعلوم الأوائل , هذه العلوم التي كان قد مضى نحو خمس عشرة سنة على الاشتغال بها في عهد المنصور نفسه وبعلمه وما ينيف عن أربعين سنة بطلب من أبيه الخليفة المنصور أبي يعقوب " ⑥ الأأن الغريب في أمر هذه النكبة أنها لم تحل بابن رشد

③الانصارى : سيرة ابن رشد , ملحق كتاب ابن رشد والرشدية , ترجمة عادل زعيتر , ط 1 , دار إحياء الكتب العربية (القاهرة 1957) ص 437

① حمادى العبيدي : المرجع السابق ص 32.

② حمادى العبيدي : المرجع السابق ص 33

③ عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ورقة رقم

وحده , بل إنها شملت عددا ممن كانوا يشتغلون بالفلسفة , فوقع نفيهم إلى أماكن متفرقة وهم : أبو جعفر الذهبي , الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم قاضي بجاية , أبو عبد الله الأصولي , أبو الربيع الكفيف وأبو العباس الشاعر " ⑦ .

لقد افصح المنشور عن أبعاد النكبة التي حلت بابن رشد , حيث قيدت حريته , ولجم لسانه , وكانت "محنة بأخر العمر وإهانة لابن رشد " ①بعد عظم الشأن ورفعة المترلة , ويذكر ابن رشد نفسه في مرارة بالغة أن أعظم ماطرا عليه فيها انه دخل وولده عبد الله مسجدا بقرطبة لصلاة العصر , فثار عليهم بعض سفلة العامة وأخرجوهما منه .

تلك كانت بداية اتصال ابن رشد بالموحدين , وعلاقته بالخليفة يعقوب المنصور , وانعكاساتها على الفقهاء , تلك العلاقة التي أقضت إلى محاكمته والحكم عليه بالادانه , والنفي فما هي الأسباب الحقيقية لهذه النكبة ؟ فهل هي متعلقة بالخليفة نفسه ,أم إنها متعلقة بأمور دينية وفلسفية وسياسية , أم أنها مجموع تلك الأسباب . وأخيرا ما تأثير ذلك على العقلية المسيحية التي تبنت أراء ومعتقدات ابن رشد ؟

الدوافع الحقيقية لنكبة ابن رشد

مثلما وقع الخلاف بين من أرخوا لابن رشد في تحديد أول اتصال له بالموحدين احتدم الخلاف بينهم ــولكن بدرجة اكبرــ في تحديد الدوافع الحقيقة لما حل به من نكبة ,②خاصة وان الفارق والأهمية كبيرة بين الحادثتين ,فثمة من أرجعها إلى أسباب شخصية بينه وبين المنصور , وثمة من ربطها بجسد الفقهاء وغيرهم من تلك الحظوة التي بلغها في البلاط الموحدي, بينما عزا غير أولئك أسباب تلك النكبة إلى اشتغال ابن رشد بالفلسفة وما صدر عنه من أراء أوهمت بزندقته ..وللوصول ــقدر الامكانــ إلى تبيان الحقيقة رأيت تقسيم أسباب النكبة إلى شطرين : يتعلق الأول بالخليفة نفسه , والثاني يتعلق بأمور الدين والفلسفة , حتى إذا انجلت الأمور بات في المقدور ترجيح السبب الأقرب لوقوع تلك النكبة التي يضرب المثل عادة بها في متابعة الفقهاء للفكر الفلسفي , والتي "ربما كانت , بخلاف ما يظن ,المحنة الوحيدة التي يبدو أن الفقهاء لم يلعبوا فيها دورا بارزا" ③ وفي هذا السياق يصف الدكتور الجابري تلك النكبة بأنها كانت"قمة أزمة الدولة" , وان كل ما يورده الكتاب من وجهات نظر لها "تخمينات تحاول أن تلتمس في كتب ابن رشد ما يمكن أن يكون مادة

---

④ الانصارى : المصدر السابق 438
⑤ نفسه ص 439
⑥الجابري : المرجع السابق ص 16
⑦ سميح الزين : ابن رشد أخر فلاسفة العرب ط 1 مؤسسة دار لبنان (بيروت 1979) ص 14

للتهمة الغامضة التي حوكم بسببها والتي لم تذكر بالاسم وإنما هي أشياء في مصنفاته قيل إن بعضها لقي بخط يده" ④

أولا : أسباب تتعلق بالخليفة المنصور: ①

هناك خمسة نقاط تتعلق بالخليفة المنصور يمكن أن يكون الحكم مبدئيا- على واحد منها على الأقل – بأنه كان سببا في ما حل بابن رشد , هي على النحو التالي :-

1- لقد كان ابن رشد مقربا من الخليفة كما ذكرنا إلى حد رفع الكلفة بينهما في التخاطب والمجلس , ودون مراعاة للفوارق الطبقية , وما ينبغي معاملة الخليفة به من أسباب التوقير والتبجيل بلغت حد مناداته أمام رعيته بعبارة أتسمع يا أخي ", وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى الادعاء بأن ذلك يحدث بدافع اعتداد ابن رشد بمكانته وتعاليه على الخليفة الذي قربه منه , مما حمل الخليفة على أن يضمر له ذلك في نفسه حتى يحين الوقت المناسب والفرصة المواتية لتأديبه , إلا أن رينان "يذهب إلى أن هذه الطريقة في الخطاب لم تكن صادرة عن ابن رشد عن سوء قصد يرمي به الحط من مكانة ذلك الأمير , وإنما هي دالة يدل بها ابن رشد عليه , وأن الأمير نفسه كان يرفع الكلفة بينه وبينه ويناديه بالأخ " ②.علاوة على أن هذا السبب لا يعد ذا أهمية , "بل قد لا يكون مؤديا بأي حال من الأحوال إلى نكبته , إذ كيف تكون طريقة محادثته للمنصور مؤدية إلى طرده من قرطبة مع بعض المفكرين , بالإضافة إلى الدعوة إلى كراهية العلوم النفسية والمشتغلين بها". ③

2- عندما صنف ابن رشد كتاب الحيوان , الذي ذكر فيه أنواع الحيوان ونعت كل واحد منها , ذكر الزرافة ووصفها فقال : "رأيت الزرافة عند ملك البربر"④. فلما وجد ذلك بخطه عرض على المنصور ضمن وثائق أدانته , فوقف على ذلك بنفسه , وقد أسخطه سخطا شديدا "حتى انه هم بسفك دمه لولا شفاعة صديقه أبي عبد الله الأصولي" ⑤. إلا أن ابن رشد تعلل بأنه إنما قال (ملك البرين), ولا يعد الأمر سوى

---

①ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة , حـ 1,ط 1, مطبعة مدريد (مدريد/ 158)ص 271
②انظر :- ابن الابار - كتاب النكبة لكتاب الصلة حـ 1
- عاطف العراقي- النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد
- عاطف العراقي- تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية
- ابن أبى أصيبعة – الصدر السابق حـ 3 ص 125
- ابن سعيد الأندلسي – المغرب في حلى المغرب حـ 2ص 321
③عبد المجيد الصغير : حول المضمون التاريخي للغرب الإسلامي – مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط عدد 15,ص
④الجابري : المرجع السابق , ص 62

① تولى الخلافة بعد وفاة والده أبي يعقوب المنصور من 558 إلى ① 595 هـ
②أرنست رينان : ابن رشد والرشدية , ترجمة عادل زعيتر , ص 38
③عاطف العراقي : المرجع السابق ص 210
④ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق , ص 531
⑤ الذهبي : حياة ابن رشد , ابن رشد والرشدية , لرينان ,ص 438
⑥ عاطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد , ص 211

تصحيف على القارئ ووهم في قراءة ذلك "والواقع كما يقول مونك" MONK " أن هذه العبارة توجد فعلا بين ثنايا شرح الفصل الثالث من الباب الثالث من كتاب أجزاء الحيوان " ⑥ وكيفما كان الحال فان الخليفة لم يصدق ذلك التبرير وإنما تظاهر بالاقتناع , مسرا الأمر في نفسه حتى تحين فرصة الانتقام منه وان كان ذلك لا يعد سببا وجيها للنكبة , وكان بإمكان الخليفة الاكتفاء بالإبعاد .

لقد درج عدد من المؤرخين على إبراز هذه الحادثة كسبب للنكبة التي حلت بابن رشد , بل عدها عبد الواحد المراكشي من الأسباب الحقيقية لذلك حين قوله :" إن ابن رشد قد جرى في ذلك على طريق العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم , غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومنتحلو الكتب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق , فكان هذا مما أحنقهم عليه , غير انهم لم يظهروا ذلك " ① .

إلا أن الدكتور الجابري له رأي أخر حول هذا السبب فذكر انه"من التخمينات الواهية التي تكذبها الوقائع فكتاب (الحيوان) ألفه ابن رشد في اشبيلية سنة 565 كما نص على ذلك هو نفسه عندما كان قاضيا فيها لأبي يعقوب يوسف , أي ست سنوات قبل تولي المنصور الخلافة ,وخمسة عشر عاما قبل هذه المحاكمة " ②

3- لقد ارتبط ابن رشد بعلاقة حميمة بأبي يحى أخ المنصور الذي كان حينها واليا على قرطبة , وهذا من شأنه إثارة غضب المنصور عليه خشية أن يكون موسوسا لأخيه بالرغبة في الحكم" ولقد تبين من تاريخ تلك الفترة أن المنافسة فيها على الملك كانت حربا ضروسا لا تنقطع في وقت من الأوقات , فلا يبعد أن ينكب الخليفة ابن رشد اتهاما له بمشايعة أخيه , واتهاما لأخيه بمصاحبة الفلاسفة , وإضمار الكفر والضلال " ③

إلا أن هذا لا يعد من أسباب ما حل بابن رشد لأنه من الأمور غير المعقولة وغير المقبولة أن تكون علاقته بشقيق المنصور – وإن كان على غير وفاق معه –مؤدية إلى تلك النكبة التي لحقت به وبأمثاله ممن كانوا يشتغلون بعلوم الأوائل وغيرها .

4- من الأسباب التي تتعلق بالخليفة المنصور ذاته ما يروى عن مناصرته للفلسفة سرا متحمسا لها مثل أبيه , إلا أن خشيته من اتهام الفقهاء له في الحملة على المشتغلين بها اندفع نحو مجارة المحافظين تقربا إليهم وكسبا لودهم , مضحيا بصديقه ابن رشد , لاسيما أنه كان في تلك الفترة "يتعرض لبعض الانتفاضات في الداخل ,ويناضل ضد النصارى في الخارج مطالبا عندهم بثأر أبيه الذي قتل أثناء حصاره لمدينة شنترين في حربه ضد الأمير البرتغالي شانجة . وقد كان لفقهاء المالكية بالأندلس نفوذ عظيم حتى إنهم كادوا يزلزلون عرش عبد الرحمن الثالث , فخرج عن مذهبهم إلى المذهب الشافعي , وقرب إليه ابن حزم الظاهري لما رآه يحمل على

① المراكشي : المصدر السابق ص 305, 306
② الجابري : المرجع السابق ص 63.
③ جميل صليبا : ابن رشد ,مجلة المجمع العلمي العربي , ج 2, مجلد 3 (دمشق 1956) , 302
④حمادي العبيدي : المرجع السابق ص 39
⑤الجابري : المرجع السابق ص 66

المالكية حملاته المعروفة, ثم ثاروا ثانية ضد عبد المؤمن بن علي , فسلك معهم سياسة استبدادية أضعفت نفوذهم مدة طويلة" ④

5- إذا كان البعض -كما ذكرنا – يقول بأن من أسباب النكبة هو اختصاص ابن رشد يأبى يحي آخى المنصور , فأن الدكتور الجابري يرى إن من مظاهر ذلك الاختصاص كتاب ابن رشد (الضروري في السياسة) الذي اختصر فيه جمهورية أفلاطون وأدان فيه الاستبداد بدون هوادة. فالكتاب من المرجح أن يكون قد كتب بناء على طلب أبى يجيى "عندما بدأ الدعوة إلى نفسه بالأندلس اثر مرض المنصور سنة 587 "هـ ⑤. كما افصح عن عدم اعتقاده بان الأمير المذكور لم يسر بذلك الكتاب لان ابن رشد وجه فيه أدانه كبيرة للدولة بأكملها "وما ألت إليه من فساد واستبداد , مشهرا بانحرافها عن المقاصد التي أعلنت عنها عند قيامها والتي التمست الشرعية منها , و لم يستثنى من أهلها إلا من كان منهم على الخلق الفاضل ومن كانت به فضيلة الشريعة القرآنية ,وهم فيهم قلة كما يقول " ①

ثانيا : أسباب تتعلق بأمور الدين والفلسفة :

لقد قال اغلب من تناولوا البحث في تلك النكبة التي حلت بابن رشد بأن حسد الفقهاء له كان من أهم الأسباب التي أفضت إليها , وسعيهم للكيد له عند المنصور , متسلحين بأمور الدين والسياسة ,والتعلل بغيرهم على العقيدة ,ووقوفهم في وجه المارقين الملاحدة وصولا إلى استعاده المكانة التي كانت لهم على عهد المرابطين , والتي لا يمكن بلوغها دون النجاح في الإطاحة بالفلسفة ورجالها , خاصة المقربين منهم للبلاط , استثارة بما حدث في المشرق الإسلامي حين اندلعت الحرب ضد الفلاسفة منذ قرأ الناس كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) فهم _ والحالة هذه_ ركنوا إلى جملة من التهم في حق ابن رشد لتكون مطيتهم في بلوغ مآربهم .

1- رمى ابن رشد بالزندقة , والادعاء عليه بتأليه كوكب الزهرة , سندهم في ذلك مخطوط قديم بخط ابن رشد أقامه كشرح لكتاب قديم احتوى على عبارة تقول (فقد ظهر أن الزهرة أحد الألهة) اطلعوا المنصور عليها بعد عزلها عما تقدمها " عازين إياها إلى ابن رشد , واجدين فيها وسيلة لعده مشركا" ② وفي هذه العبارة (المحورة) ما لفت انتباه الخليفة والتشكيك في معتقده .

2- قال البعض بإنكار ابن رشد للريح العاتية التي اهلك الله بها قوم عاد , بل انه أنكر وجودهم أصلا رغم ورود خبرهم في القران الكريم , فلقد نقلوا عنه قوله : "والله قوم عاد ما كانوا حقا فكيف سبب هلاكهم " وهذا بطبيعة الحال يمكن اعتباره سببا وجيها في حال تأكيد صحة وروده عنه,وهو ما لم يتوفر له دليل حتى الآن .

3- وجه الفقهاء إلى فلسفته عدة مطاعن تتعلق بأربعة قضايا تناولها في مؤلفاته هي : قدم العالم , علم الله تعالى , خلود النفس , بعث الأجساد "وهو في الواقع لم ينكر هذه المسائل الاعتقادية , ولكنه سلك في بحثها مسلكا فلسفيا بعيدا عما جاء به الوحي" ③ .

وكيفما كان الحال والأسباب فان القدر قد كتب على ابن رشد أن ينكب في أخر العمر نكبة لم يطل أمدها , حيث لم يلبث المنصور أن عفا عنه ودعاه إلى مراكش "ثم أن جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غير ما نسب إليه , فرضى المنصور عنه وعن سائر الجماعة " ④ التي تجرعت معه مرارة النكبة, وشملهم جميعا بالعفو وذلك في سنة خمسمائة و خمس وتسعين .وجعل أبا جعفر الذهبي ① مزوارا للطلبة ومزوارا للأطباء , وكان يصفه المنصور ويشكره ويقول عنه :" إن أبا جعفر الذهبي كالذهب الإبريز الذي لم يزدد في السبك إلا جودة "② فعهد إليه بمهمة العناية بمكتبه البلاط وبما احتوت عليه من كتب الطب والفلسفة خاصة .

تلك هي الأسباب التي وردت بشأن نكبة واحد من أجل علماء الإسلام , لاشك أن واحد منها أو أكثر هو الذي أدى إلى ذلك وإن كان الأرجح عليها جميعا هو اشتغاله بالعلوم المنطقية والفلسفية , وأن ماعدا ذلك لا يمكن اعتباره جوهريا , وأن نظرة واحدة إلى فقرة في المنشور الذي كتب بعد محاكمته بأمر من المنصور تكفي للتدليل على ذلك :

"اللهم إن دينك هو الحق اليقين , وعبادك هم الموصفون بالمتقين وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ,فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم , ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف في مجال ألسنتهم والإيقاظ بحدة من غفلتهم وسنتهم ,ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهوان ثم طردوا من رحمة الله , ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ...والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم,ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم , إنه منعم كريم ". ③

الغريب أنه بعد كل ما حدث , نجد أن الخليفة نفسه عاد للانكباب على دراسة الفلسفة , ولما "عرضت عليه بعض قضاياها دعا ابن رشد ليستعين به على فهمها ④وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه البعض من أن

---

① الجابري نفسه ص 67
②عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ص 115
③ إبراهيم مذكور : في الفلسفة حـ 2 , ط 3 و دار المعارف (القاهرة 1976) ص 84
④ الجابري : المرجع السابق ص 66
①احد الرجال الذين نكبوا معه
② ابن ابى اصيبعة : المصدر السابق ص 532
③الانصارى : سيرة ابن رشد , (ذيل ابن رشد والرشدية لرينان) ص 439
④البستاني : دائرة المعارف , مجلد 1 , طبعة طهران (د .ت), ص 489
⑤نفسه : مجلد 3 ,ص 94
⑥ كارل بروكلمان , تاريخ الشعوب الإسلامية , ,ج 2 , ص 196 .

المنصور لم ينكب ابن رشد انتقاما منه ولا اضطهادا له, بل حدا من غلو الجمهور والفقهاء الذين درجوا بين الفينة والأخرى على المناداة بتكفير الفلاسفة والتنكيل بهم ⑤

موقف علماء الدين المسيحي من نكبة ابن رشد :

لقد اقتدى علماء الدين المسيحي بعلماء الإسلام في موقفهم من ابن رشد , وأنهم إزاء ذلك "حرموا شروحه الفلسفية الأرسطية عام 1209 م فكفر بقضايا كان قد سبق لعلماء الإسلام أن حكموا عليه بسببها ". فلما ترجمت لهم كتبه وشروحه أثناء القرن الثالث عشر , حملت الكنيسة على نظرياته وحرمت تداولها , لبى نداءها أسقافة باريس وأكسفورد وكانتر بيري وغيرها ⑥إلا أن الفيلسوف الفرنسي رينان في حديثه عن شيوع إلحاد ابن رشد لدى النصارى لم يكن لذات الأسباب التي اهم بها من لدن علماء الإسلام , "وإنما كان بسبب كتبه الكلامية التي تتجلى فيها حرارة عقيدته الإسلامية وحرارة الدفاع عنها بصدق . وبعبارة أوفى فإن إلحاده عند النصارى كان بسبب حماسته للإسلام اعتبارا منهم أن المسلمين ملاحدة ".①

① أرنست رينان , ابن رشد والرشدية ,ص 173 .